الفصل الأول

الأنواع المعرضة للخطر

الأوروبيون أنواع تتلاشى-

تايمز اللندنية[1].

إن أهم حقيقة مفردة جديدة - ولو لم يكن ذلك إلا بسبب أنها حقيقة ليس لها سابقة في التاريخ كله - هي انهيار نسبة الولادات في العالم المتقدم كله.

بيتر أف. دركر[2].

مثلما كان تنامي عدد السكان طوال وقت مديد علامة على أن الأمم تتمتع بالصحة، فإن هبوط عدد السكان صار سمة للأمم وللحضارات التي تعيش حالة انحطاط. وإذا ما كان هذا صحيحا، فإن الحضارة الغربية تكون، مع وضع القوة والثروة جانبا، في حالة حرجة. وذلك لأن السكان في الغرب، مثل قطة شيشير،(*) قد بدؤوا بالتلاشي.

(*) قطة شيشير من شخصيات رواية أليس في بلاد العجائب للروائي البريطاني لويس كارول (١٨٣٢-٩٨).

وحتى وقت متأخر في ١٩٦٠، كان السكان الأوروبيون، ومعهم الأمريكيون، والأستراليون، والكنديون، يبلغون ٧٥٠ مليونا، أي، الربع من ٣ بلايين من البشر الأحياء. وكانت الأمم الأوروبية تعيش في زمن ازدهار ولادة الأطفال في ذلك القرن. وبعد أن انتُزِعت من هذه الأمم إمبراطورياتها، وشفيت جراح الحرب، بدت حية ذات حيوية. وفي الحقيقة كان الملتوسيون الجدد يصرخون محذرين من الانفجار السكاني، ويحذرون بشكل قاتم من أن موارد الكرة الأرضية، والأرض الصالحة كانت تنفد. وكانوا موضع ضحك السخرية. وأما مع مجيء العام ٢٠٠٠، فما بقي هناك من أحد يضحك.

وفي الوقت الذي تضاعف فيه عدد سكان العالم إلى ستة بلايين نسمة في غضون أربعين عاما، فقد توقفت الشعوب الأوروبية عن التكاثر. وبدأ عدد السكان بالتوقف، بل وفي العديد من البلدان، بدأ عدد السكان بالهبوط. ومن بين الأمم الأوروبية السبع والأربعين، هناك أمة واحدة فقط، وهي ألبانيا المسلمة، كانت ما تزال تحتفظ في العام ٢٠٠٠ بمعدل مواليد كاف ليبقيها حية إلى أجل غير محدد .أما بقية أوروبا فقد بدأت تموت.

التنبؤ بالحالة المحتملة للوضع متجهم. وبين العام ٢٠٠٠ والعام ٢٠٥٠ سوف ينمو عدد سكان العالم بأكثر من ثلاثة بلايين نسمة ليصل إلى ما يزيد عن تسعة بلايين نسمة، ولكن هذه الزيادة التي

تبلغ ٥٠٪ بالمائة من سكان المعمورة سوف تأتي بكاملها في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، بينما سوف يتلاشى عن ظهر الأرض مائة مليون نسمة من الأصول الأوروبية.

في العام ١٩٦٠ كان السكان المنحدرون من أصول أوروبية يشكلون ربع سكان العالم، وفي العام ٢٠٠٠ كانوا يشكلون السدس، وأما في العام ٢٠٥٠ فسوف يشكلون عشر سكان العالم. هذه هي الإحصاءات عن جنس يتلاشى. وقد حرض الوعي المتنامي بما تعنيه هذه الحال من نذر مشؤومة إحساسا بتوجس الشر، بل بالذعر، في أوروبا.

أوروبا

في العام ٢٠٠٠ بلغ العدد الإجمالي لسكان أوروبا من آيسلاندا إلى روسيا ٧٢٨ مليون نسمة. ولكن، وفق معدلات الولادة الحالية، وبدون هجرة جديدة، سوف يهبط سكانها إلى ٦٠٠ مليون نسمة مع حلول العام ٢٠٥٠. هذه هي إسقاطات توقعات سكان العالم: النقاط الأساسية لمراجعة العام ٢٠٠٠، التي أصدرتها إدارة مختصة هي إدارة السكان في الأمم المتحدة في ٢٨ شباط فبراير/٢٠٠١. وترى دراسة أخرى أن عدد سكان أوروبا سيهبط إلى ٥٥٦ مليون نسمة مع

منتصف القرن.[٣] آخر مرة أظهر فيها عدد سكان أوروبا هبوطا بمثل هذه الضخامة كانت في أثناء الموت الأسود من ١٣٤٧-١٣٥٢. وترى أستاذة الاقتصاد جاكلين كاسون من جامعة هامبولت الحكومية في كاليفورنيا ومؤلفة كتاب الحرب ضد السكان، ترى أن القحط الذي ضرب معدلات المواليد هو أزمة أخطر من الموت الأسود، وتقول:

> مع وباء مثل الموت الأسود (في القرن الرابع عشر) ربما مات ثلث أوروبا، ولكن الوباء حصد الشيوخ والشباب على حد سواء... أما هذا النزول الحاد في الخصوبة فلم يشمل إلا الشباب فقط. الزوجان ما يزال لهما حاليا آباء وأجداد ليعيلوهم إعالة مباشرة أو من خلال ضرائبهم. ونظرا لأن لدى الزوجين نسلا أقل أو أنهما بدون نسل ليشاركهما في ذلك العبء فإن ولادة الأطفال تبدو غير ممكنة الاحتمال على نحو أكبر. فكيف إذن تشق طريقك لتخرج من حفرة مثل عدد السكان المتناقص؟[٤]

هذا سؤال ممتاز، وإذا لم تجد أوروبا الجواب له سريعا فإن أوروبا تموت. كم هي مظلمة الحالة؟ إن من أصل عشرين أمة هي صاحبة أخفض معدلات الولادة في العالم هناك ثماني عشرة أمة في أوروبا. وقد هبط معدل الخصوبة المتوسط عند المرأة الأوروبية إلى ١,٤ طفل، علما أن الحاجة تدعو إلى ٢,١ طفل لمجرد تعويض السكان الموجودين حاليا. ويقول كاتب الافتتاحية بن واتنبيرغ: هذا لا يعني صفر معدل نمو، هذا يعني صفر سكان.[٥]

سيكون على الأمريكيين في حلف الناتو أن يدافعوا قريبا عن عالم فراغ واسع. وإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية سارية فإن سكان أوروبا سوف يتناقصون إلى ٢٠٧ مليون نسمة مع نهاية القرن الحادي والعشرين، وهم بذلك أقل بنسبة ٣٠٪ بالمائة مما هم عليه الآن. وسيكون مهد الحضارة الغربية قد صار قبرا لها.

لماذا يحدث هذا؟ الاشتراكية، التي كانت النشوة السعيدة للمثقفين الأوروبيين لأجيال خلت، هي السبب. ويحاجج الدكتور جون والاس من بولوجنا من جامعة جونز هوبكنز ويقول: " إذا كان لدى كل مواطن وعد بالحصول على تقاعد من الدولة فإن الأطفال لا يمثلون بعد ذلك تأمينا حيويا ضد العوز في الشيخوخة وتقدم العمر. " " وإذا كانت النساء قادرات على أن يكسبن أكثر من كفايتهن ليكن مستقلات ماليا فإن الزوج لا يبقى بعد ذلك أساسيا. وإذا كنت تستطيع أن تمارس الجنس أيضا وبدون أطفال - ويصدق هذا الآن، على ما يبدو، على إيطاليا الكاثوليكية مثلما يصدق على بريطانيا العلمانية - فلماذا إذن تتزوج"؟[٦٥]

وإذ استطاع الاشتراكيون الأوروبيون تحرير الأزواج، والزوجات، والأطفال من مسؤوليات الأسرة فإنهم بذلك قد اجتثوا الحاجة إلى الأسر. وبناء على ذلك بدأت الأسر تختفي. وعندما تذهب الأسر تذهب أوروبا معها. ولكن، في الوقت الذي تموت فيه أوروبا، فإن

العالم الثالث يضيف مائة مليون نسمة - أي يضيف مكسيكا واحدة جديدة - في كل خمسة عشر شهرا. ومع حلول العام ٢٠٥٠ يكون قد أضاف أربعين مكسيكا جديدة في العالم الثالث، هذا في الوقت الذي ستكون فيه أوروبا قد فقدت ما يعادل العدد الكلي لسكان بلجيكا، وهولندا، والدانمارك، والسويد، والنرويج - وألمانيا! ومع غياب التدخل الرباني، أو رغبة مفاجئة من النساء الغربيات ليبدأن بتكوين أسرهن بالحجم نفسه الذي كانت عليه أسر جداتهن، فإن المستقبل سيكون ملك العالم الثالث. وكما كتب ت.إس. إليوت في "الرجال الجوف": " هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم / بلا ضجيج بل بالأنين والنشيج. "[٧]

انتقام كليمنصو(*)

تمتم جورج كليمنصو قائلا: " هناك عشرون مليون ألماني، كثير جدا! " وجورج كلمنصو هو " نمر فرنسا " والسياسي المسؤول أكثر من غيره عن معاهدة فرساي التي جردت ألمانيا من مستعمراتها، ومن عشر أرضها، ومن ثمن سكانها. [٨] وكراهية كليمنصو مفهومة.

(*) جورج كليمنصو (١٨٤١-١٩٢٩) سياسي فرنسي، كان رئيس الوزراء بين (١٩٠٦-١٩٠٩) وبين (١٩١٧-١٩٢٠).

فكما كتب أليستير هورن في تاريخه عن سقوط الجمهورية الثالثة، " كان كليمنصو واحدا من النواب الذين احتجوا ضد تسليم الألزاس واللورين في العام ١٨٧١، وهو الذي هرب ونجا بأعجوبة من الإعدام بدون محاكمة في الحرب الأهلية التي تلت الكومونة. "[٩] وشهد خلع إمبراطوره عن العرش، ورأى قيصر ألمانيا يتوج في فرساي. وفي الحرب العظمى رأى فرنسا التي يحبها تدمر وتعيث فيها فسادا جيوش هندنبيرغ ولودندورف التي تركت خلفها جثث ١,٥ مليون ونصف من الفرنسيين عندما سارت راجعة لوطنها في الرايخ.

وفي غضون خمسين عاما سيكون النمر قد حقق انتقامه، وذلك لأن النساء الألمانيات يرفضن أن ينجبن أطفالا. وطوال عشر سنوات كان معدل الولادة في ألمانيا قد وقف عند ١,٣ طفل للمرأة الواحدة، وهو معدل أقل بكثير من معدل ٢,١ الضروري لتعويض السكان الموجودين حاليا. وفيما يلي المستقبل القاسي الآن على الأمة الألمانية، مع حلول العام ٢٠٥٠:

- سيكون ثلاثة وعشرون مليون ألماني قد اختفوا.
- عدد سكان ألمانيا الذي بلغ اثنين وثمانين مليون نسمة سوف يهبط إلى تسعة وخمسين مليون نسمة.
- عدد الأطفال الألمان تحت سن الخامسة عشرة سيكون قد نزل إلى ٧,٣ مليون نسمة.

- ثلث سكان ألمانيا سيكون فوق الخامسة والستين. وهؤلاء الشيوخ سيفوقون بعددهم الأطفال بنسبة أكبر من اثنين لواحد.
- مجمل سكان ألمانيا سيشكل ثلثي ١ بالمائة من سكان العالم، وسيكون هناك ألماني ١ فقط من كل ١٥٠ نسمة على الأرض. وسيكون الألمان من بين أكثر شعوب العالم شيخوخة على ظهر البسيطة.

وبناء على طلب المؤلف قام جوزيف شامي مدير قسم السكان في الأمم المتحدة بالتنبؤ وتوقع عدد السكان لعدة أمم أوروبية من الآن وحتى العام ٢١٠٠. فإذا استمر معدل المواليد الحالي في ألمانيا وكانت الهجرة صفرا، فإن عدد سكان ألمانيا سوف يهبط من ٨٢ مليون نسمة إلى ٣٨,٥ مليون نسمة مع حلول نهاية القرن، وهو نزول بنسبة ٥٣٪ بالمائة.[١٠]

وينظر إدموند ستوبير البافاري المحافظ والمستشار المحتمل إلى معدل المواليد في ألمانيا بوصفه " قنبلة زمنية موقوتة تدق. "[١١] ويحض على مضاعفة علاوة الأطفال إلى ثلاثة أضعاف للسنوات الثلاث الأولى من العمر. واليوم تدفع ألمانيا ١٤٠ دولارا للطفل لأول طفلين، وتدفع أكثر من ذلك للطفل الثالث. إن فكرة ستوبير اليوم تدعى فكرة راديكالية، أما في الغد فلن تكون كذلك.

تقول إحداهن، غابرييلي ثانهيسر، وعمرها أربعة وثلاثون عاما، وتعمل في بنك في برلين، وتقضي إجازتها في روما مع

صديقها الذي تساكنه وتعاشره: " السبب الذي من أجله لا أنجب أطفالا هو أنني أحب أن أنام، وأحب أن أقرأ كثيرا، وأستطيع أن أنام طوال الليل. "[١٢] ويؤكد ذلك صديقها، أندرياس غيرهمان، وعمره سبعة وثلاثون عاما، ويقول: نحن اثنان "بدخل مزدوج من دون أطفال. "[١٣] وعلى المدى البعيد فإن الانغماس في الملذات على طريقة هذين الاثنين غيرهمان وثانهيسر "بدخل مزدوج من دون أطفال". "قد يبرهن على أنه أشأم وأفتك بالشعب الألماني من الرايخ الثالث.

مع سقوط جدار برلين، سعى هيلموت كول مستشار ألمانيا الغربية أن يوحد البلاد بعد خمسة وأربعين عاما من الانقسام في أثناء الحرب الباردة. وسُمِعت في بريطانيا، وفي روسيا، وفي فرنسا، حتى في الولايات المتحدة الأمريكية صيحات ملتاعة تقول إن العالم لم يبق قادرا على أن يثق بألمانيا موحدة. واحتج المعترضون بأن ألمانيا حاولت مرتين أن تقهر أوروبا. ما هي الضمانة التي نملكها على أن ألمانيا الموحدة لن تزحف مرة ثانية على أوروبا؟

هذا قلق يستطيع الغرب أن يطرحه ليستريح. فمع شيخوخة وموت الشعب الألماني، ومع كون الأطفال الألمان المتوقعين أقل بخمسة ملايين في العام ٢٠٥٠ من عددهم في العام ٢٠٠٠ فإن

ألمانيا، مثل جندي شائخ في أغنية الجنرال ماك آرثر(*)، توشك "بالضبط أن تتلاشى ببطء."

إيطاليا، متنزّه ترفيه بموضوع مركزي واحد

التوقعات المستقبلية للعرق الإيطالي، وهو العرق الذي أعطانا روما وكل مجدها، وكنيسة القديس بطرس والكنيسة السيستينية، وأعطانا دانتي، وميكائيل أنجلو، وكولومبوس وغاليليو، هي توقعات أكثر إيلاما . لقد كان معدل المواليد في إيطاليا تحت مستويات معدلات الاستبدال طوال خمسة وعشرين عاما وهبط إلى ١,٢ طفل للمرأة الواحدة. عند هذا المعدل، سوف يهبط عدد سكان إيطاليا البالغ سبعة وخمسين مليون نسمة ليصير واحدا وأربعين مليون نسمة مع مجيء العام ٢٠٥٠. ويكتب الباحث السكاني نيقولاس إيبرستاد من معهد المشروع الأمريكي قائلا: "لا يكاد ٢٪ بالمائة من سكان إيطاليا يكونون تحت سن الخامسة في العام ٢٠٥٠، ولكن ٤٠٪ بالمائة منهم سيكونون في سن ٦٥ أو أكبر."[٣١] ويضيف غريغ إيستربروك من نيو ريببلك قائلا: إن معدل الولادة "في تلك البلاد

(*) غلاس ماك آرثر (١٨٨٠-١٩٦٤) جنرال أمريكي حارب في فرنسا في الحرب العالمية. وصار رئيس أركان الجيش (١٩٣٠-١٩٣٥). في الحرب العالمية الثانية.

التي تعد أكثر كاثوليكية ورومانسية بين الأمم، يعني أن إيطاليا سوف تكون متنزها بموضوع مركزي واحد في غضون أجيال قليلة."[١٥]

وقد وجد مسح حديث في مجلة نوا دون الشعبية "نصف النسوية " أن ٥٢٪ بالمائة من النساء الإيطاليات البالغات من العمر بين ستة عشر وأربعة وعشرين عاما لا يرغبن في إنجاب أطفال وقد وضعن الخطط لذلك.[١٦] وكان "المسار الوظيفي" هو سببهن الرئيس لعدم رغبتهن في الإنجاب. ويقول عالم السكان في جامعة روما أنتونيو غولييني إن الأمة تعتمد منذ مدة على المهاجرين ليحملوا عبء نظامها التقاعدي المدين بعمق. ولكن الثقافة الإيطالية الآن في خطر. ويعتقد غولييني: "إن إيطاليا لن تكون بعد الآن إيطالية ... ستكون نهاية المجتمع كما نعرفه. "[١٧]

وقد أطلق على غولييني اسم "إرهابي سكاني" منذ عشرين عاما، وذلك عندما حذر للمرة الأولى من الأزمة السكانية الوشيكة لإيطاليا.[١٨] ولكنه لم يبق يدعى بذلك الاسم الآن على الرغم من أن الدكتور غولييني ما زال باقيا على تشاؤمه العميق حول بلاده ويقول: "في سوق عمالة معولم على نحو متزايد يجب على إيطاليا أن تتنافس مع فرنسا، ومع الولايات المتحدة الأمريكية، ومع الهند. فكيف يمكن لنا أن ننافسهم بمجتمع مثل مجتمعنا الشائخ وبعدد قليل من الشباب على مثل هذا الحال."[١٩]

وقد حض الكاردينال جياكومو بيفي من بولونيا روما على أن تحدد الهجرة للكاثوليك لكي "تنقذ هوية الأمة، " وهو يرفع حاجبيه تعجبا بملاحظة أن المسلمين لهم: " طعام مختلف، ومهرجانات مختلفة، وأخلاقيات أسرية مختلفة."[٢٠] ولكن أين يقترح نيافة الكاردينال أن يجد مثل هؤلاء الكاثوليك؟

ليس في إسبانيا بالتأكيد، حيث كانت الأسر الكبيرة في أيام الديكتاتور العسكري الجنرال فرانسيسكو فرانكو مقدسة وتلقت أوسمة وهبات من الدولة. ومعدل المواليد الإسباني هو أخفض معدل في كل أوروبا، وهو أخفض من معدل إيطاليا، أو جمهورية التشيك، أو رومانيا، ومعدل الولادات في كل هذه البلدان قد انخفض إلى ١,٢ طفل لكل امرأة واحدة. ومعدل الولادة في إسبانيا قد انخفض إلى ١,٠٧ لكل امرأة واحدة، ويتوقع أن يهبط عدد السكان بنسبة ٢٥٪ بالمائة في غضون خمسين عاما، وذلك في الوقت الذي يرتفع فيه عدد الإسبان الذين تزيد أعمارهم عن خمسة وستين عاما بنسبة ١١٧٪ بالمائة. ويقول فيكتور بيريز دياز عالم الاجتماع في مدريد: " في جيل واحد انتقلنا من مجتمع كانت فيه الأسر التي تضم ثمانية أطفال أو حتى اثني عشر طفلا أمرا ليس غير عادي، إلى مجتمع صار فيه الزوجان اللذان يعيشان بلا أطفال أمرا شائعا، أو أن الناس يفكرون تفكيرا طويلا وصعبا حول

إنجاب طفل ثان.[٢١] وبحلول العام ٢٠٥٠ سيكون متوسط العمر في إيطاليا أربعة وخمسين عاما، وفي إسبانيا خمسة وخمسين عاما، وهذا المتوسط يزيد أربعة عشر عاما عن متوسط العمر في اليابان وهي أكثر الأمم شيخوخة اليوم على ظهر البسيطة.

ويقول الدكتور بيربولو دوناتي، وهو مفكر بارز كاثوليكي وأستاذ علم الاجتماع في جامعة بولونا: " إن يسر الرخاء قد خنقنا، ورفاهية الترف هي الآن الشيء الوحيد الذي يؤمن به أي إنسان. وصارت أخلاق التضحية من أجل الأسرة - وهي إحدى الأفكار الأساسية للمجتمع الإنساني - صارت فكرة تاريخية. إنه لأمر مذهل. "[٢٢]

في العام ١٩٥٠ كان عدد سكان إسبانيا ثلاثة أضعاف عدد سكان مراكش عبر مضيق جبل طارق. ومع حلول العام ٢٠٥٠ سيكون عدد سكان مراكش أكثر بنسبة ٥٠٪ بالمائة من سكان إسبانيا. وإذا تزوج مائة شاب وشابة إسبانيون اليوم يُتوقع أن يكون لهم ثمانية وخمسون طفلا، وثلاثة وثلاثون حفيدا، ولكن لن يكون لهم إلاّ تسعة عشر حفيد فقط.

روسيا

وماذا عن موقع القيادة الأخير من امبراطورية الاتحاد السوفيتي الذي هز العالم طوال سبعين سنة؟ بمعدل ولادات يبلغ ١,٣٥ طفلا لكل امرأة واحدة سيهبط عدد سكان روسيا البالغ ١٤٧ مليون نسمة إلى ١١٤ مليون نسمة بحلول عام ٢٠٥٠، وهو فَقْد من السكان يزيد على ٣٠ مليون نسمة وهو عدد الأموات الذين ينسب موتهم إلى ستالين. وكذلك فإن عدد الأطفال في روسيا تحت سن الخامسة عشرة سيكون قد هبط من ٢٦ مليون إلى ١٦ مليون نسمة، بينما سينمو عدد كبار السن من السكان من ١٨ مليون نسمة كما هو الآن إلى ٢٨ مليون نسمة.

وفي كانون أول ديسمبر ٢٠٠٠ جاءت من روسيا أنباء أكثر تشاؤما. فمعدل الولادة في روسيا قد غاص وهبط إلى معدل ١,١٧ طفلا، أي أنه أخفض من معدل الولادة في إيطاليا. وهبط عدد السكان إلى ١٤٥ مليون نسمة، ويذهب تقدير آخر إلى أن العدد يتجه إلى ١٢٣ مليون نسمة بحلول العام ٢٠١٥. ويحذر الرئيس بوتن ويقول: " إذا صدقتم التنبؤات التي قدمها أناس جادون كرسوا كل حياتهم لدراسة هذه المسألة ففي غضون ١٥ سنة سيقل عدد

الروس بما يساوي ٢٢ مليون نسمة. فكروا فقط في هذا الرقم - إنه سبع عدد سكان روسيا. "[٢٣] إن فقدان ٢٢ مليون روسي في ١٥ عاما سيكون أكبر من كل ما فقده الاتحاد السوفيتي في حرب هتلر - ستالين. وذهب بوتين ليضيف متشائما، "إذا استمر الاتجاه الحالي فسوف يكون هناك تهديد لبقاء الأمة "

إن العمر المتوقع للرجال الروس هو الآن ٥٩ عاما، وحملان من كل ثلاث حبالى في روسيا ينهيان قبل الولادة. ومعدل الاجهاضات للنساء الروسيات هو ٢,٥ إلى ٤ لكل إمرأة، ومعدل الوفيات في روسيا هو الآن أعلى بنسبة ٧٠٪ من معدل الولادة.[٢٤] وحتى عودة ملايين الروس من الجمهوريات السوفيتية السابقة لا يستطيع أن يعدل ويوازن عدد الموتى. والأشد تشاؤما لأكبر أمة على سطح الأرض هو أن سكان سيبيريا الواسعة الفارغة هم في تناقص شديد في الوقت الذي يتضخم فيه عدد سكان الصين على نحو عنيد.

وعندما قام فلاديمير جينيروفسكي النائب المتحدث في مجلس الدوما أي مجلس النواب، وهو قومي متعصب، بتقديم أفكار من مثل تعدد الزوجات الذي يسمح لكل رجل روسي بالزواج من ٥ زوجات، مع حظر على الاجهاض لمدة ١٠ سنوات، ومنع النساء الروسيات من السفر إلى الخارج، جلبت عليه أفكاره هذه السخرية مثلما أن مشروعات القوانين السكانية التي طرحها لقيت الاستهزاء

وسقطت.[٢٥] ولكن أزمة الحياة في روسيا لا يمكن استبعادها ومضامينها الجيواستراتيجية بالنسبة لأمريكا مضامين متشائمة.

وقد تنبأ السيد شامي بما سيبلغه عدد بسكان روسيا، مع معدلات الولادة الحالية وصفر من الهجرة، حتى نهاية القرن الحادي والعشرين، فجاءت التقديرات بعدد يقل عن ٨٠ مليون روسي في العام ٢١٠٠ وهو تقريبا عدد سكان الولايات المتحدة عندما غادر ثيودور روزفلت منصبه في العام ١٩٠٩.[٢٦]

بريطانيا العظمى

وماذا يخبيء المستقبل لأبناء العمومة؟

بقول بول كريغ روبرت، وهو كاتب لعمود ينشر في عدة صحف: " حَسَبَ علماء السكان سيكون الشعب الإنجليزي أقلية في وطنه مع نهاية هذا القرن. إن الإنجليز لا ينجبون ما يكفي من الأطفال لإعادة إنتاج أنفسهم.[٢٧] وهذه هي المرة الأولى في التاريخ، كما تقول لندن أوبزيرفر، التي "يصير فيها سكان محليون رئيسيون، طواعية منهم، أقلية، من غير طريق الحرب أو المجاعة أو المرض."[٢٨]

إن لندن أوبزيرفر مخطئة. فإن شرف كونها أول أمة تُحوِّل طواعيةً منها سكانها المحليين الأكثرية إلى أقلية سيكون من نصيب الولايات المتحدة. لقد تنبأ الرئيس كلينتون أن هذا سيحدث مع حلول العام ٢٠٥٠ أي قبل بريطانيا العظمى بمدة نصف قرن. ولكن البريطانيين يتوجهون بوضوح في الاتجاه نفسه. إن الأقليات العرقية تشكل منذ مدة ٤٠٪ من سكان لندن، ويقرر لي جاسبر، مستشار العلاقات العرقية لعمدة لندن، ويقول: "إن علوم السكان تبين أن السكان البيض في لندن سيصيرون أقلية بحلول العام ٢٠١٠."[٢٩]

من بين الأسباب الداعية لذلك الهبوط المطّرد لمعدل الولادات بين البريطانيين المولودين من الأهالي المحليين. في العام ٢٠٠٠ كان هناك عدد أقل من الولادات في إنجلترا وويلز بما يبلغ ١٧٤٠٠ نسمة مما كان عليه في العام ١٩٩٩، وهو هبوط يعادل ٣٪ تقريبا، وهبط معدل الخصوبة إلى ١,٦٦ ولادة لكل امراة واحدة، وهي أخفض نسبة منذ أن بدأت الإحصاءات تحفظ في هذا الموضوع في العام ١٩٢٤.[٣٠]

اليابان

من بين الأمم الاثنتين والعشرين التي تتميز بأخفض معدلات الولادات هناك أمتان فقط خارج أوروبا - أرمينيا واليابان، وهذه الأخيرة هي أول أمة آسيوية تدخل العصر الحديث.

ولم تكسر اليابان عزلتها إلا في العام ١٨٦٨. ولكن هذه الأمة المتحركة كانت في غضون ثلاثين عاما منافسا للقوى الغربية. اليابان هزمت الصين، واستعمرت تايوان، وفي العام ١٩٠٠ أرسلت جنودها ليمشوا إلى جانب الأوربيين والأمريكيين لإنقاذ المفوضيات الدبلوماسية في بكين التي كان حاصرها المتمردون الصينيون المعروفون باسم "البوكسر."(*) وكانت الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥) هي أول حرب استطاع فيها شعب آسيوي أن يهزم قوة غربية كبيرة. وقد بدأت الحرب بهجوم مباغت على الفرقة البحرية الروسية في بورت آرثر، وانتهت في معركة هي أحسم المعارك في

(*) ثورة البوكسر (١٨٩٨ -١٩٠٠) حركة مضادة للأجانب في الصين. وفي يونيو ١٩٠٠ قام ١٤٠,٠٠٠ من الثوار باحتلال بكين ومحاصرة الغربيين والمسيحيين الصينيين هناك. وارتفع الحصار في أغسطس من العام نفسه بقوة دولية من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا واليابان. وفي ١٩٠١ أجبرت الصين على دفع غرامة بقيمة ٣٣٣ مليون دولار وعلى السماح بوجود قوات أجنبية في بكين.

التاريخ، وذلك بإغراق أسطول البلطيق القيصري في مضايق اتسوشيما في خلال ست وثلاثين ساعة على يد الأدميرال توغو.

وفي الحرب العالمية الأولى كانت اليابان قوة حليفة وقدر لإسهامها في جهود الحرب أن يجمع مستعمرات القيصر في الصين وفي المحيط الهادي، وأن يدافع عن الممتلكات الاستعمارية الأوروبية في آسيا، وأن يرافق قوات من استراليا ونيوزلندا إلى غاليبولي.(*) وأرسلت اليابان أيضا فرقة بحرية إلى البحر الأبيض المتوسط. ولكن عندما ضغط الرئيس هاردنغ ووزير الخارجية تشارلز إيفان هوغز على لندن لتفسخ حلفها الذي دام عشرين سنة مع اليابان وذلك في مؤتمر واشنطن البحري شعر اليابانيون أنهم تعرضوا للخيانة وللإذلال وللعزل. وهكذا اتخذ القرار الذي لا رجعة عنه. فبعد عشرين عاما جاءت بيرل هاربر والتدمير الكامل لليابان ولامبراطورية أنشئت طوال ستين عاما بتكلفة باهظة في الدماء والأموال.

(*) حملة غاليبولي، من أبريل ١٩١٥ إلى يناير ١٩١٦ وهي حملة قام بها الحلفاء في تركيا في الحرب العالمية الأولى. خطط لها ونستون تشرتشل وكان الغرض منها احتلال مضائق الدردنيل، والقسطنطينية، والوصول إلى التماس مع روسيا. ولكن سوء التنسيق بين الحلفاء والمقاومة التركية القوية أجبرت الحلفاء على إخلاء مواقعهم وحولت الحملة إلى كارثة لهم.

ولكن اليابان وبالمساعدة الأمريكية وبتقليد الطرق والأفكار الأمريكية صارت بعد الحرب أكثر الأمم حراكا على ظهر الأرض. ومع حلول العام ١٩٩٠ كان اقتصادها هو الاقتصاد الثاني الأضخم في العالم، ويعادل نصف حجم اقتصاد الولايات المتحدة، وذلك على الرغم من أن اليابان تشغل مساحة أصغر من مونتانا- وهذا إنجاز غير عادي لشعب غير عادي.

ولكن شيئا ما حدث لليابان، فهي أيضا بدأت تموت. إن معدل المواليد اليابانيين هو نصف ما كان عليه في العام ١٩٥٠. ويتوقع لعدد سكانها أن يبلغ الذروة قريبا عند عدد ١٢٧ مليون نسمة، ولكن عددهم سيهبط إلى ١٠٤ ملايين نسمة بحلول العام ٢٠٥٠، وعندها سيكون هناك عدد من الأطفال اليابانيين أقل من نصف عددهم الذي كان في العام ١٩٥٠ ولكن سيكون عدد كبار السن في اليابان ثمانية أضعاف ما كان عليه في العام ١٩٥٠. ستكون حراكية اليابان قد ماتت، ودورها الآسيوي قد تضاءل، وذلك لأنه سيكون هناك خمسة عشر صينيا في مقابل كل فرد ياباني. وحتى الفلبين التي لم تكن تحوي من السكان إلا ربع سكان اليابان في العام ١٩٥٠ سيكون لديها ٢٥ مليون نسمة أكثر من سكانها السابقين مع حلول العام ٢٠٥٠.

ما السبب في هذا العجز الياباني في الأطفال؟ إن أكثر من نصف جميع النساء اليابانيات الآن يبقين عزباوات مع وصولهن إلى

الثلاثين من العمر. ويعرفن باسم "العزباوات الطفيليات" ويعشن في البيت مع والديهن ويتابعن مساراتهن الوظيفية، والعديدات قد تركن أي فكرة للزواج وانجاب الأطفال[٣١] وشعارهن: "أعيش لنفسي واستمتع بالحياة." وبعد أن سجلت المدارس الابتدائية في اليابان في العام ٢٠٠٠ أصغر فصل دراسي في التاريخ قامت طوكيو برفع علاوة الأطفال إلى ٢٤٠٠ دولار في السنة لكل طفل لمدة ٦ سنوات. وبعض المحافظين يريدون مضاعفة ذلك عشرة أضعاف.

وفي مقابلة مع بيجي أورن اشتاين من *نيويورك تايمز* قالت متسوكو شيمومورا وهي صحفية يابانية طليعية في الستينيات من عمرها: إن اليابان تنال الآن ما تستحقه لأنها لم تمنح المساواة الكاملة للنساء:

> لست آسفة على الانهيار في معدل الولادة... وأعتقد انه أمر جيد والطفيليات قد خلقن بدون قصد منهن حركة مثيرة للاهتمام. وعلى السياسيين الآن أن يشحذوا النساء لينجبن أطفالا. ومالم ينشىء السياسيون مجتمعا تشعر فيه النساء بالراحة عند إنجاب الأطفال والعمل فإن اليابان سوف تدمر في غضون ٥٠ عاما أو مائة عام. وإعانات الأطفال لن تفيد. المساواة فقط هي التي تفيد.[٣٢]

هؤلاء النسوة يقررن مصير الأمة اليابانية ومستقبلها.

لقد سحقت الإمبراطورية الآسيوية لليابان في العام ١٩٤٥،

ولكن شيئا ما حدث في وقت أكثر قربا ليضعف حيوية اليابان وإرادتها في أن تحيا وتنمو وتتوسع وتغلب في الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمال. يسمي المراقبون هذا الحال بأنه فقدان "الروح المعنوية الحيوانية " كما وصفها الاقتصادي المشهور جيه. أم. كنز.

ولكن ربما كان هناك تفسير آخر وأبسط وهو: العمر. فمن بين ١٩٠ أمة على ظهر الأرض تعتبر اليابان هي الأمة الأكبر عمرا، بمتوسط للعمر يساوي واحدا واربعين عاما - وذلك لأن اليابان كانت أول أمة حديثة شرعت الاجهاض (١٩٤٨)، وانتهى ازدهار الأطفال عندها بعد ذلك مباشرة، ولكن قبل نهاية ازدهار الأطفال في الشعوب الغربية بوقت طويل.

هل هناك توازٍ بين موت النصرانية في الغرب وموت عقيدة اليابان قبل الحرب وفي وقت الحرب؟ عندما تفقد الأمم إحساسها بالمهمة الرسالة، وبتكليفها من السماء، وبإيمانها الذي جاء بها إلى هذا العالم بوصفها بلادا فريدة وثقافات فريدة فهل يكون ذلك هو الوقت الذي تموت فيه؟ هل هذا هو الوقت الذي تندثر فيه الحضارات؟ هكذا يبدو الأمر.

دعنا ننظر ثانية في توقعات السكان للعام ٢٠٥٠، ونحاول أن نتصور كيف سيبدو عالمنا.

في إفريقيا سيكون هناك ١,٥ بليون نسمة. ومن المغرب إلى الخليج الفارسي سيكون هناك بحر عربي تركي إسلامي من ٥٠٠ مليون نسمة. وفي جنوب شرق آسيا سيعيش ٧٠٠ مليون نسمة من الإيرانيين والأفغانيين والباكستانيين والبنجلاديشين ومعهم ١,٥ بليون نسمة من الهنود. وسيكون هناك ٣٠٠ مليون نسمة من الأندونيسين، وسوف تربض الصين على آسيا بسكانها البالغ عددهم ١,٥ بليون نسمة.

وروسيا، بعدد سكانها المتناقص المنكمش البالغ ١١٤ مليون نسمة فقط، ستكون قد اختفت إلى حد بعيد من آسيا. وسيكون كل الروس تقريبا غرب الأورال عائدين إلى أوروبا. والإنسان الغربي الذي هيمن على أفريقيا وآسيا في النصف الأول من القرن العشرين سيكون قد اختفى من أفريقيا وآسيا مع حلول أواسط القرن الحادي والعشرين ربما تستثنى صغيرة في جنوب أفريقيا وفي إسرائيل. وفي استراليا، وهي أمة يبلغ عددها ١٩مليون نسمة فقط، ومعدل الولادة للرجل الأبيض هو الآن تحت معدلات التعويض، فإن السكان الأوروبيين سيكونون قد بدؤوا في الاختفاء.

هناك أزمة مروعة تواجه أممم العالم الأول: فبحسب معدلات الولادة الحالية يجب على أوروبا أن تجلب إليها ١٦٩ مليون مهاجر

مع حلول العام ٢٠٥٠ إذا كانت ترغب في أن تحافظ على عدد سكانها الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ عاما إلى ٦٤ عاما عند مستواه اليوم. ولكن إذا كانت أوروبا ترغب بالمحافظة على معدلهم الحالي وهو ٤,٨ من العمال (١٥-٦٤) لكل مسن فإن على أوروبا أن تجلب ١,٤ بليون مهاجر من أفريقيا والشرق الأوسط. ضعها بطريقة أخرى: إما أن ترفع أوروبا ضرائبها وتخفض جذريا رواتب التقاعد والفوائد الصحية للمسنين، أو أن تصبح أوروبا قارة من العالم الثالث. ليس هناك طريق ثالث.

إذا لم يرتفع معدل خصوبة أوروبا فإن عدد الأطفال الأوروبين تحت سن الخامسة عشر سوف يهبط بنسبة ٤٠٪ إلى ٨٧ مليون نسمة بحلول العام ٢٠٥٠، وهذا في الوقت الذي يرتفع فيه عدد المسنين بنسبة ٥٠٪ إلى ١٦٩ مليون نسمة. وسيكون العمر المتوسط للأوروبي ٥٠ عاما، وهو الأعلى في التاريخ، ويزيد ٩ سنوات عن العمر المتوسط الحالي في اليابان. وقد كتب عالم السكان الفرنسي الفريد سوفي عن أوروبا قائلا إنها توشك أن تصير قارة من "شعب مسن في بيوت قديمة وأفكار قديمة."[٣٣]

هل موت الغرب أمر لا مناص منه؟ أو، مثله مثل كل التنبؤات السابقة عن انحطاط الغرب وموته فإن هذا الكأس أيضا سوف

يبتعد ويمر ويكشف جميع الذين قالوا لابد لنا أن نشرب هذا الكأس بوصفهم حمقى؟

فبعد كل شيء تبين أن مالتوس كان مخطئا، وأن ماركس كان مخطئا، وأن الديمقراطية لم تمت في أثناء الكساد الكبير كما تنبأ الشيوعيون. وأن خروتشوف "لم يدفنا ". ولكن نحن الذين دفناه. وثبت أن فلم على الشاطئ من إخراج نيفيل شوت كان خياليا مثل دكتور سترينج لف و سبعة أيام في مايو. والقنبلة السكانية لبول أهيرليتش لم تنفجر أبداً. وإنما أزت أزيزا. وانهيار ٧٩ أنتج رونالد ريغان وأنتج عصرا من المشاعر الطيبة. ومثل ذلك نادي روما فنحن لم ينفد منا الزيت. والعالم لم ينته عند نهاية الألفية الثانية كما تنبأ بعضهم وكما أمل الآخرون. من تنبأ باختفاء الإمبراطورية السوفيتية أو بتفكك الاتحاد السوفيتي؟ أليس من الممكن أن الأمم ذات الكثافة العليا في السكان اليوم - الصين، والهند، وأندونيسيا - يمكن أن تفتت إلى قطع كذلك؟ فلماذا لاتتمي التنبؤات بموت الغرب إلى الرف القديم نفسه مثل التنبؤات عن "الشتاء النووي " و"الاحترار الكوني."

جواب: موت الغرب ليس تنبؤا بما سيحدث، إنه تصوير لما يحدث الآن. إن أمم العالم الأول تموت. وهي تواجه أزمة مميتة، لا بسبب شيء ما يحدث في العالم الثالث، بل بسبب ما لايحدث في الوطن وفي بيوت العالم الأول. مضى على معدلات الخصوبة

الغربية عقود وهي تهبط. وخارج ألبانيا المسلمة ليس هناك أمة واحدة أوروبية تنجب ما يكفي من الأطفال لتعوض النقص في سكانها. ومع مرور السنوات فإن معدل الولادة لايستقر إنه يهبط. وفيما يقارب ٢٠ بلدا فإن المسنين يموتون منذ مدة بأسرع مما يجري انجاب الشباب. ليس هناك أي اشارة للعودة عن ذلك. وقد بدأت الآن الأرقام المطلقة للأوروبين بالهبوط.

هذه ليست مسألة تنبؤ، بل هي مسألة رياضيات. وكلما كان الغوص أحدَّ وأطول كان الانسحاب أكثر صعوبة. على العالم الأول أن يعكس هذا الاتجاه حالا، وإلا فسيتم اكتساحه من العالم الثالث الذي هو أكثر سكانا بخمسة أضعاف، وسيكون أكثر سكانا بعشرة أضعاف في العام ٢٠٥٠. إن القدرة على الانسحاب من هذا الغوص تتضاءل كل عام. وليس هناك في مرمى النظر أي نهاية لهذا القحط في المواليد، وتبين كل المؤشرات الاجتماعية والثقافية أكثر فأكثر أن النساء الغربيات يتحولن إلى فكرة عدم انجاب الأطفال.

وزيادة على ما تقدم، هناك يقين حسابي بشأن بعض نواحي علم السكان. فإيطاليا لا تستطيع أن يكون لديها شابات بالغات بعمر الحمل في العام ٢٠٢٠ أكثر مما يكون لديها من المراهقات والأطفال والصغار والرضع اليوم. ولا يمكن اضافة أي مجموعة من السكان موجودة لهذا العدد إلا بالهجرة. ولا يمكن منع موت الغرب

إلا بالعودة الضخمة من النساء الغربيات إلى فكرة يبدو أنهن قد تخلين عنها وهي أن الحياة الجيدة تكمن في حمل الأطفال وتربيتهم وإرسالهم إلى العالم ليتابعوا استمرارية الأسرة والأمة.

لماذا تنجب النساء الغربيات أطفالا أقل عددا من أمهاتهن أو لماذا لا ينجبن مطلقا؟ لماذا تطوعت العديدات جدا فيما تسميه الأم تريزا "الحرب ضد الطفل"؟[٣٤] لقد كانت النساء الغربيات يملكن منذ مدة طويلة الوصول إلى طرق ووسائل السيطرة على الولادة ولكنهن لم يخترن استخدامها إلى المدى الذي يصلن إليه اليوم. وطوال ثلاثين عاما كانت النساء الأمريكيات يملكن الوصول السهل إلى الإجهاض، ولكنهن على خلاف النساء الصينيات، حرات أيضا في اختيار الحياة. ليس هناك أي قاضٍ اتحادي يجبر أي امراة أن تجهض.

ومع ذلك فإن النساء الغربيات ينهين حملهن بمعدل يمثل الابادة الذاتية للشعوب المنحدرة من أوروبا ويمثل نهاية لأممهم. قال خوان غانز كوني: "إن رعاية الأطفال هي علامة على المجتمع المتحضر."[٣٥] فلماذا لم يبق الأطفال موضع رعاية كما كانوا مرة من قبل؟ وما الذي أحدث التغير الهائل في قلوب وفي عقول النساء الغربيات والرجال الغربيين؟ وهل هذا أمر يمكن الرجوع عنه؟ فإذا لم يكن من الممكن الرجوع عنه فإننا نستيطع أن نبدأ بكتابة الفصول الأخيرة من تاريخ حضارتنا وآخر وصية وشهادة من الغرب.